سطوع المكان وضبابيّته في ديوان "لقاء الليل" للشاعر محمود فضيل التل

The Clarity and the Vagueness of the Region in the Poet Mohmoud Fadell Altal's Collection of Poems "Night Meeting"

إعداد

د. خولة محمود رفيفان الأسعد

أستاذ مساعد– جامعة جدارا

إربد – الأردن

مجلة الدراسات التربوية والانسانية. كلية التربية. جامعة دمنهور

المجلد الخامس عشر- العدد الثاني- لسنة2023

سطوع المكان وضبابيّته في ديوان "لقاء الليل"
للشاعر محمود فضيل التل

د. خولة محمود رفيفان الأسعد

الملخص :

تهدف الدراسة من خلال تتبع الأماكن التي وردت في ديوان "لقاء الليل" تتبع وضوح دلالاتها وخفوتها، وبيان الدلالة الخاصة والعامة لمضمونها ودلالاتها الوظيفية.

وتتكون الدراسة من: جزء تنظيري، يتكون من مقدمة تبين أهمية دراسة المكان كمحور نقدي، ثم وقفة تعريفية بالشاعر محمود فضيل التل، ويليه التعريف بمحور الدراسة (ديوان لقاء الليل)، ثم وقفة عن علاقة المكان بالشعر والشاعر والمتلقي.

والجزء الثاني: التطبيقي وفيه نتحدث عن لفظة "الوطن" وتمحوراته، وهو يتكون من:

الوطن وانعكاساته (الوطن– الأردن) و (الوطن– فلسطين والقدس) و (الوطن– العروبة) ، وعموم لفظة (المكان) وخصوصيتها، فنجدها تختص بتجربته الرومانسية، ومرة تخدم فكرة الفداء والبطولة، وتقلباتها ما بين وضوح دلالتها وانحرافها لغير ذلك في سياق الحديث عنها.

ثم نختم الدراسة بنتائج ترصدها وتصل إليها وتوصي بها.

الكلمات المفتاحية:

المكان، الوطن، السطوع، الضبابية، الدلالة، لقاء الليل، محمود فضيل التل.

Abstract

The study aims, by tracing the places mentioned in the "Night Meeting" diwan, to track the clarity and subtlety of their connotations, and to show the specific and general significance of their content and functional connotations. The study consists of: a theoretical part, consisting of an introduction that shows the importance of studying the place as a critical axis, then an introductory pause with the poet Mahmoud Fadil Al-Tal, followed by an introduction to the study axis (Diwan of the Night Meeting), then a pause on the relationship of the place with poetry, the poet, and the recipient.

The second part: applied, in which we talk about the word "homeland" and its pivots, and it consists of:

The homeland and its reflections (the homeland - Jordan), (the homeland - Palestine and Jerusalem) and (the homeland - Arabism), The generality of the word (place) and its specificity, so we find it related to his romantic experience, and sometimes it serves the idea of redemption and heroism, and its fluctuations between the clarity of its connotation and its deviation to other than that in the context of talking about it.

Then we conclude the study with results that are monitored, accessed and recommended.

Keywords:
Region, Country, Clarity , Vagueness, Semantics, Night Meeting , Mahmoud Fadeel Al-Tall

المقدمة:

اعتمد الشاعر محمود فضيل التل في ديوانه "لقاء الليل" الصورة المكانية كنقطة مركزية وبؤرة عميقة، ليوضح وينقل مشاعره وأحاسيسه الخاصة، ورؤيته الفلسفية، وبيّن علاقته بالواقع المتسع والأطر المكانية المقيدة للواقع، من خلال الولوج إلى أعماق الانعكاس المكاني الشاسع، وذلك من خلال تتبع الأمكنة ورسمها بخصوصيته ورؤيته الشاعرية.

فالمكان عنده يشكل رابط خفي يمتد خيطه؛ ليشكّل مرآة تعكس كل ما يدور في خيالاته ورؤاه الداخلية العميقة.

فجعلنا نحلّق معه في سماء الوطن وجبالها ووديانها وكهوفها، وأخذ بنا إلى أمكنته الخاصة، فتعرفنا إلى انعكاسات موقفه تجاه القدس، والشام ومصر، وأسمعنا ضجيج الانتماء للعروبة يصدح صداه واضحًا. وتنقّلنا معه من القصور إلى الديار والبيوت والجامعات والغرف وغيرها، مما جعل الدراسة تقف مهمته بـ "المكان" لتوضح لنا دلالات أمكنته الساطعة وتوظيفها في السياق، وتبين الأماكن الضبابية وانعكاس خيالاتها ودلالاتها في مواطنها.

وتهدف الدراسة إلى تتبع الأماكن التي وردت في الديوان "لقاء الليل" والوقوف على تجلياتها، والوصول للدلالة الوظيفية بين المكان والشاعر، وبين المكان والمتلقي، والرد على التساؤلات الآتية:

- ما أهمية المكان وما دلالته المبثوثة في " لقاء الليل"؟
- وما أنواع الأماكن التي تمثلت في "لقاء الليل" لتشكل صورة المكان وتباينها ما بين السطوع (الوضوح) والضبابية (الخفوت)؟
- ما الدلالات الوظيفية التي عكست علاقة الشاعر بالمكان، ووضّحت الصورة الفنية العميقة؟

ما علاقة المكان مع عناصر الصورة الفنية للنص الشعري، والسرد التسلسلي لعرض الفكرة، من خلال مشاعر الشاعر، لتصل الصورة للمتلقي كلوحة فنية مبدعة، يتلمّس مجرياتها، ويصدم بدهشة الإبداع الفني؟

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي ،الذي التزم بالكشف عن عنصر المكان في الصورة الفنية، وتتبع مكوناته، وانعكاساته داخل السياق التركيبي للنصوص الكاملة لديوان "لقاء الليل"، وبيان جمالية الاستخدام والتوظيف الإبداعي للأمكنة ضمن الصورة الفنية المتكاملة.

يتوقع من الدراسة الكشف عن جماليات استخدام المحطات المكانية وبيان انعكاساتها ودلالاتها الوظيفية، ونتاجها الإبداعي، وتقديم البُعد الجمالي للنص الشعري، وعلائقه الفنية.

كثرت الدراسات الحديثة عن المكان وتجلياته منها الدراسات النظرية لمفهوم المكان وأنواعه وجمالياته، ومن أشهرها كتاب "جماليات المكان" لـ جاستون باشلار، وكتاب "إشكالية المكان في النص الأدبي" ياسين النصير، وربما تخصصت بالتنظير مع التطبيق على النص الإبداعي فتختار رواية لكاتب أو مجموعة قصصية أو ديوان شاعر لتطبيق جزئية مختصة بالمكان.

وتضمنت الدراسات التطبيقية الاهتمام بالمحور النقدي الحديث، وتطبيق قواعده على النص المختار لذلك.

ووفق حدود علمي، لم يسبق لدراسة أنها بحثت موضوع عنصر المكان في ديوان "لقاء الليل" للشاعر محمود فضيل التل.

إلا أن هناك دراسة بحثت في عنوان الديوان "شعرية العنوان" [1] استخدمت الدراسة التطبيقية على ديوان الشاعر محمود فضيل التل "لقاء الليل" .

[1] شعرية العنوان، عماد الضمور، مجلة رصين، 16 اكتوبر، 2020.

اعتمدت الدراسة على مدخل تنظيري بعد التمهيد العام "محور المكان" وحدوده وتجلياته ورؤيته الفنية في النص الإبداعي في ديوان " لقاء الليل" واستكشاف العلاقة ما بين المكان والمبدع (الشاعر)، والمكان والمتلقي (القارئ)، وذلك من خلال تمهيد يحوي على مقدمة ومحور تنظيري عن المكان، ومحور تطبيقي ينقسم إلى "تصنيف المكان" واستخلاص واستنتاج النتاج الدلالي للسياق.

عن الديوان "لقاء الليل":

يكثّف الشاعر في ديوانه الروح الرومانسية والعواطف الجياشة والمشاعر الملتهبة، من خلال عرض الواقع بلحظاته الزمنية الحاضرة، والارتداد إلى الذاكرة الحالمة واللحظات الماضية. وتظهر روحه الوطنية وعروبته الصارخة بانفعالاته وتصريحاته.

الديوان يتكون من (56) قصيدة، معنونة بعناية سيميائية عميقة، تتنوع ما بين الايجابية والسلبية، وما بين الحب والوطن، وما بين الحاضر والماضي، ما بين الواقع والذكريات، والشوق واللقاء، والربيع والخريف.

فالتباين واضح بين "هذا الوداع"، "متى اللقاء"، "أهذا ربيع" ، "خريف العمر"، " أيها القادم من بعيد" ، "نشيد الرحيل الأول" ، " أحضان السماء" ، "عكر الثرى" وغيره الكثير.

وهذا التباين الواضح ما بين المعاني الخارجية للصورة، وما تستثيره النفس من معاني داخلية عميقة ، يوضح ذلك التباين الداخلي.

في ذات الشاعر المبدع، ليجعل الصور شاملة متكاملة الوضوح. وهذا التباين الواضح جعل من الدراسة خيطا واضحا لتتبع التباين بين سطوع تحديد المكان المحدد بعد الاستقرار على الرموز المكانية المختارة وضبابيته وتتبعها في الديوان "لقاء الليل" والتباين بين انعكاس المكان وهندسيته الخارجية في وضوحه وسطوعه، ويقابله الخفوت والضبابية للأماكن الأخرى، وتتبع دلالاتها ما بين ما ترسمه العين، وما تخفيه النفس عميقا ويستتر بخفايا الروح بعيدا.

علاقة المكان بالشعر:

يعتبر المكان الأساسي والبؤرة في إطار العمل الفني الإبداعي، وتصوّر الفكرة الفنية في ذاكرة وخيال المبدع، وفي إطارها السردي أكانت نصًا نثريًا (قصة أو رواية) أو شعرًا أو لوحة فنية لونية، إذ لا يمكن تصور علاقات الأحداث المترابطة والمتواجدة في إطار الصورة الفنية الإبداعية إلا إذا كانت الشخصيات حاضرة ضمن الفضاء السردي مكانًا وزمانًا، لذلك يعتبر المكان من أساسيات اكتمال الصورة الفنية وآليات صناعتها داخل العمل الإبداعي.

والمكان مرتبط بالزمان (الفضاء الإبداعي) ارتباطا وثيقا لا يمكن فصله، فلا نتوقع حدث ما في لحظة زمنية ما، إلا تحقيقه في مكان ما، بين أفراد وشخصيات العمل، لذلك كان تواجد هذه العناصر السردية أمرًا حتميًا في كل الأعمال الفنية، وفي كل النصوص الإبداعية، وكان اختيار المكان أيضا من الأمور التي لا تعتمد النقل التصويري الفوتوغرافي، إذ أن المبدع أراد اختيار هذا المكان لأسباب عميقة وانعكاس نفسي وثيق الصلة، وعميق الأبعاد مما يجعل المكان منعكس بطريقة سحرية ليتوقف المتلقي أثناء القراءة، وهو ما يسمى بفكرة "تعليق القراءة"[2].

فيقف القارئ ليتلمّس أثر هذا المكان بالنسبة إلى نفسيته ومرجعيته ومشاعره وأحاسيسه، وبذلك ينقل المبدع للقارئ المكان، ليس بوصفه مكانًا محددًا (له بعد هندسي) وإنما المكان بما يعكسه، وبما يضجّ به من ذكريات وأصداء مختلفة، تأخذه إلى عوالم ذلك المكان مهما بعُدت المسافة، وانزاح الزمان بُعدًا عن الواقع.

المكان مع الإنسان رحلة تواجد، ينتقل من مكان لآخر، مع التراتب الزمني، وعبر الأحداث المتفاعلة من الآخرين ليشكّل السرد الحكائي للحياة الخاصة، لكنها تأخذ بُعدًا فنيًا إذ كان ضمن السرد الفني الإبداعي.

---

[2] جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1984، ص 7.

والتكثيف المكاني أو جعل المكان البؤرة الرئيسية للعمل الفني، وهو الشحن العاطفي أو التركيز النفسي للاختيارات المكانية للمبدع التي ستنعكس على المتلقي لتأسره أو تدهشه ليتفاعل مع اختياراته المكانية التي ارتبطت بالمبدع، وبأعماقه وعلائقه النفسية، وتبرز قدرة المبدع الشاعر على تحويل المكان إلى لوحة شعرية يمزج فيها الألوان والمشاعر والبعد المكاني، وحتى رائحة المكان وطزاجة الزمان مع تفاعلات العاطفة والذكريات كصورة فنية متكاملة.

فالعلاقة بين المكان والشخوص والزمان لتشكيل الحدث، علاقة تفاعل وتمازج ظاهري وفلسفي يعكس رؤيا الشاعر الفلسفية الخاصة. فالمكان هو التاريخ كله "يحمل الموروث ويستوعب الحاضر، ويشكّل المستقبل"[3].

وتتجمع عناصر الصورة الفنية كلها معتمدة على خصوصية المكان، فهي تقوم على "تكوين البؤرة العلائقية التي تربط الأمكنة بعناصر الدراما الشعرية"[4].

وتخلص إلى أن آلية توظيف المكان وصهره في بوتقة النص الشعري، وفق قدرة ومهارة الشاعر في التعبير عما يدور في نفسه، وما حوله من معطيات تدعم التفاعل المتكامل.

ولأهمية القراءة المكانية داخل النصوص الإبداعية الشعرية خصوصا، التفت النقاد في العصر الحديث لدراسة ظاهرة المكان، وتتبّع تجلياته وتفاعلات الشعراء من خلال تتبع أشكال الأمكنة وتنوعاتها وتمثلات دلالاتها المختلفة، ومن هذه الدراسات :

إشكالية المكان في النص الأدبي: ياسين النصير.

فلسفة المكان في الشعر العربي: حبيب مؤنسي.

المكان في النص الشعري : نجم الدين كمال، وغيرها الكثير.

---

[3] جماليات المكان في الرواية العربية، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط1، 1994، ص 46.

[4] جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية الحديثة: وليد منير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، د.ط، 1997، ص 169.

ثم تخصصت الدراسات وضيّقت محور التطبيق، فاختار النقاد شاعرًا واحدًا أو عملا واحدا لمبدع محدد، وتتبع تجليات المكان وانعكاساته في العمل الفني المحدد.

كما في دراسة: (الانتقاءات المكانية في رواية عابر سبيل أحلام مستغانمي، دراسة ماجستير للطالبة بن أعراب سهيلة) و(تجليات المكان في قصص أحمد يوسف عقيل :أسامة عزت أبو سلطان)

وكما في (تجليات المكان في شعر سيف الرحبي، فاطمة الشيدي)

أو تتبع رمز محدد مكاني، في عمل فني محدد، كما في (صورة المدينة في شعر نزار قباني: رسالة ماجستير للطالب قتيبة يوسف الحباشنه).

و(صورة الوطن في شعر حبيب الزيودي: رسالة ماجستير للطالبة مجدولين المساعفة).

التطبيق:

اعتمد الشاعر صورة مكان الوطن هذه الدائرة الواسعة أو المحيط الشاسع الذي يحوي جميع نقاط الأمكنة الأخرى الخاصة والعامة، الجغرافية الواقعية أو المتخيلة النفسية.

وتشمل جميع محطات الذاكرة كلها، وهذا هو إطار الوطن، هذا الوطن الواسع الأفق، الممتد إلى ما لا نهاية من المشاعر والولاء والانتماء، بخصوصيته الايجابية والسلبية، ويعكس رؤية الشاعر وخصوصيته كمبدع استطاع أن يلخص انعكاس مشاعره تجاه هذا الحيز الجغرافي أو المكان الحسي الممتد وفق تقسيم الخريطة السياسي، أو وفق تقسيم الانتماء السياسي أو الفكري أو العقائدي.

هذه الدائرة المحددة قد تكون موافقة للخارطة مرة، وقد تصغر مرة أخرى، لتحدد مفهوم خاص للوطن المخصص للشاعر، وفق رؤيته لتلك اللحظة، فتضيق عن الحيز الجغرافي لدلالة خاصة، وتتغير ملامح المكان فيصبح معنى الوطن

مختلف، وتتسع ملامحه لتكون ممتدة لكل ما يحمل مضمون الوطن، وفق انتماء الشاعر للوطن العربي كاملا.

وستقوم الدراسة بتتبع استخدام لفظ "الوطن" وتقسيماته وتنوعاته وفق معانيه المنعكسة، وكذلك درجة وضوحها وسطوعها أو خفوتها وضبابيتها أو حتى الأفول والضياع.

وكذلك تتبع الإشارات الدالة إلى مفهوم الوطن وتجلياته، وبيان درجة سطوعها وضبابيتها وتفرعاته ما بين المناطق داخل حدود الوطن، وما بين تحديد معنى مفردة الوطن واتساعها وتقلباتها.

أولا: الوطن:

أ) الأردن:

ونبدأ بالأردن (الوطن) المحدد جغرافيا، فهو يحقق الانتماء السياسي للشاعر، ويصنع الدفء والأمن النفسي له، ككل فرد يعيش تحت سمائه.

فقد ورد ذكر لفظة (الأردن) خمس عشرة مرة، في أربعة مواطن كان الأردن منادى (قريبًا واضحًا)، يقول الشاعر:

"وأنت الحب يا أردن" [5]

والنداء هنا له خصوصيته وأثره على المرسل والمتلقي معًا، فهو يرى أن الأردن، ليس بجماليته وليس بمشاعره تجاه الوطن، بل هو يعكس وجوده "المتصوّر في أعماق الذات" [6] أكثر وضوحًا مما هي على الواقع كصورة جغرافية أو حيّز مكاني محدد.

ويقرر بوضوح ان حبه للوطن، وأن الوطن هو الحب الذي يعطيه الشعور بالاطمئنان، فيدعو له بالحماية والأمن، فيقول:

---

[5] لقاء الليل، مصدر سابق: 201.

[6] فلسفة المكان في الشعر العربي، جبيب مؤنسي، منشورات دار الكتاب العرب، دمشق، د. ط، 2001، ص 128.

"حماك الله يا أردن يا وطنًا

تنامى في مجتمعنا

مع التاريخ والبنيان والسير" [7]

ويستطلع تاريخ هذا العشق من الأزل وللأبد المستمر، ثم يلخص قضية الوطن والأمن والاطمئنان، فيقول:

"فأنت الدار يا أردن أسكنها وتسكنني

فروحي ما رأت سكنًا

سواك ... سواك يا وطني " [8]

هذا الأمان والاطمئنان جعله من السكنة والسكينة؛ سببها الانتماء للأردن، وجعل الأردن الذي نسكنه أمانًا واطمئنانًا، وجعل الأردن مكانًا تسري به روحه، وتتخذه سكنًا.

ففي هذه القصيدة "سأكتب عنك يا وطني"

يلخص علاقته بالوطن ويكشفها، ويجعلها لوحة عشق، ولوحة شوق مستمرة، فيقول:

"وأرسم لوحة للشوق تسكن رحلة الزمن" [9]

ويكشف هذا العشق ويجعله لامعًا ساطعًا، ليطرد ظلمة الحياة في تقلباتها ما بين النهار والليل، فيقول:

"سآتي في شعاع الشمس

والظلماء والقمر

سأرجع للربى طوعًا " [10]

---

[7] لقاء الليل، مصدر سابق: 201.

[8] المصدر السابق: 203.

[9] لقاء الليل ،مصدر سابق: 199.

[10] المصدر السابق: 210.

وتتماهى صورة الوطن، مع هذا المشتاق المغترب فيتحدى هذا الشوق، فيقول:

"سآتي مع رياح الليل إعصارًا

وآتي في نسيم الفجر أحلاما

وأنت الحب يا أردن

أنت الطيف والوجدان في الأفكار والصور" [11]

وهنا يظهر موقف الشاعر من الاغتراب، فهو يرفض فكرة الاغتراب المنافية لفكرة العيش في الوطن، والانغماس فيه ملاذا آمنا، فيصرخ متسائلا، مستنكرًا:

"فكيف أكون مغتربا" [12]

وذلك لكون الشاعر فردًا من هذا الوطن الذي يفتخر به، ويعتز بانتمائه إليه.

ويتابع موضحًا علاقته به، مقررًا ومبينًا السبب:

"وأنك في حنايا القلب تسكنني

فما أحسست في يوم

بأني كنت مغتربا

لأنك لم تفارقني

كما روحي تنادمني

كما ظلي تسير معي

فأنت الدار يا أردن أسكنها وتسكنني

فروحي ما رأت سكنا

سواك، سواك يا وطني" [13]

---

[11] المصدر السابق: 201.

[12] المصدر السابق:202.

[13] لقاء الليل، مصدر سابق: 203.

فالغربة في مصطلح الشاعر، ليست البعد جغرافيا والارتحال مكانًا فقط، وإنما الشعور بفقد الحب والانتماء للوطن فهو ينتمي للفخر والعزة والإباء (الأردن) جغرافيا، وإلى كل ذرة تنتمي إلى الأردن.

وبذلك يوضح صورة العشق والانتماء الدائم في القلب، وفي الروح حتى لو بعدت المسافات، فلا يمكن لهذا العاشق يومًا ما، أن يكون مغتربًا، فاقدًا للانتماء، لأن الأردن يسكن فيه مكان الروح، مكان الظل الملائم لوجوده.

فيتسع ساطعا بين حنايا كلماته، هذا الانتماء المفاخر به: للوطن، للسكن، للأردن، ولهذا يجعل منه عشقًا فريدًا يمتزج بروح العاشق الولهان شوقًا وعشقًا للوطن.

وتتوزع الأماكن الجغرافية المتعددة داخل الأردن، كمحطات مكانية، ضمن سياقها الدلالي، أثناء الكلام عنها بشكل عام ويأخذ كل مكان خصوصيته جغرافيًا مع البُعد النفسي.

فقد ذكر سبعة أماكن، مسميات مكانية في الأردن، وحددها فذكر (مؤتة) [14] و(وادي العرب)[15]، و(الكرامة)[16]، و(عجلون)[17]، و(البتراء)[18]، و (أيلة)[19]، وأشار إلى مكان خاص للحديث عن غابة جرن الغزال تحت مسمى (الغابة) [20]

وهنا تكون الخصوصية في تحديد الأماكن داخل الوطن وفقا لمواقف وأحداث يسردها أثناء البوح، وبثّ الشوق لأجزاء من الوطن.

---

[14] انظر: المصدر السابق: ص 9، ص 216.

[15]، لقاء الليل ،المصدر السابق: 202.

[16] المصدر السابق: 216.

[17] المصدر السابق: 217.

[18] المصدر السابق: 217.

[19] المصدر السابق: 218.

[20] المصدر السابق: 109.

ففي ذكر (مؤتة) تأتي قصيدته الأولى في الديوان (زهو بمؤتة) [21] ليرتبط هذا المكان بحالة خاصة من الزهو والفخر، وعندما تمت دعوته تشريفًا لحضور مناقشة رسالة ماجستير تتحدث عنه، وعن شعره، فيتحدد هذا المكان ملازمًا للشعور بالزهو والفخر، ولهذا سيكون هذا اليوم في هذا المكان من أجمل الأيام، فيقول :

"زهو بمؤتة ما أحلى بشائره وما أجلّ سنا التاريخ في الزمن
يوم بمؤتة والأيام أجملها ما كان يحكي عن الإنسان والشجن" [22]

ومقابل هذا الكشف وسطوع اسم مؤتة، جاء في السياق ما يقابلها من خفوت وخفاء لذكر المكان، لكنه معروف ومشار إليه داخل السياق، ومعلوم أثناء الكلام، ومشار إليه، ففي قوله:

"شكرًا لجامعة" [23]

ففي أثناء القراءة وبدليل سياق الكلام نعرف أننا نتحدث عن جامعة مؤتة، وهو ما ذكره في قوله:

"ضمت بأروقة"[24]، أي أروقة جامعة مؤتة.

وفي سياق رد الضمير إلى ما عرّف سابقًا، يستخدم هذا في السياق عن الحديث عن جامعة مؤتة، فيقول:

"أرجو لها كل نصر في رسالتها رسالة العلم للأجيال والوطن" [25]

---

[21] المصدر السابق: 9
[22] المصدر السابق: 9
[23] المصدر سابق: 10.
[24] المصدر السابق: 10
[25] المصدر السابق: 10

والمقصود بذلك تفخيم الدلالة والإرتقاء من الحديث المباشر بالتعريف بالاسم الصريح إلى التنكير تفخيمًا وتعظيمًا، وإعلاءً للشأن أمام المتلقي؛ ليستحضر عظمة رتبتها عنده.

وقد يكون الاسم للمكان خفي وخافت يحتاج إلى توضيح يشار إليه، لخصوصيته، كما في قول الشاعر عندما يتحدث عن والده: " **وصوته دافئ ما بين خضرته في الغاب تسمعه يأتيك نشوانا**"[26]

والمقصود هنا في أرض والده التي يسكنها، وفي بيته في منطقة تسمى "**غابة جرن الغزال**" وهو توضيح نبّه إليه الشاعر في حاشية القصيدة [27].

وفي ندائه الآخر، بصوت جلي واضح، يأتي متمازجًا ما بين (الأردن) و (الوطن).

فيأتي نداء الوطن، بعد أن أضاف إلى ياء المتكلم، ياء الملكية، والأنا الداخلية، ياء الخصوصية المتعمقة في ذاته، فيقول: "سأكتب عنك يا وطني" [28]

وطني الذي انتمي إليه، وأضيفه إلى روحي وذاتي، ويتابع فيقول:

"**عزيزًا كنت ولتبق**

مدى الأيام يا وطني " [29]

ويؤكد على ما سبق من التميّز والتفرّد للوطن، هذا المكان الذي يهتم به، ويجعله جزءًا منه، فيقول:

"فروحي ما رات سكنًا

سواك، سواك يا وطني"[30]

---

[26] المصدر السابق: 109

[27] المصدر السابق، ص 109

[28] المصدر السابق: 199

[29] المصدر السابق: 200.

لقد جعل الروح كائنا يرى، ويختار بعناية البصر والبصيرة؛ ليختار هذا الوطن، دون سواه.

ويستخدم التأكيد من خلال تكرار لفظة (سواك) لخصوصية المكان وفرادته والاختصاص به دون غيره، لكونه (الوطن). وترد كلمة الوطن في عشرين موضعًا، تتباين علاقة الكلمة، ما بين خصوصية الوطن ليدل على (الأردن)، أو تتوسع لتصبح (الوطن العربي)، أو يندغم مع وجع العرب، لتتوحد بقعته الجغرافية مع فلسطين.

ففي قصيدة "رداء أبي" يشير إلى المسمى، المميز بخصوصيته، بمقدمة سردية، فيقول:

"ومهما كانت الأسماء تعجبني
سيبقى في ذرى العلياء شيء
اسمه الوطن
هذا رداؤك للأحفاد تلبسه
حتى تظل عزيزًا في مرابعه
مهما ارتحلت، سيبقى مجدك للأعلى
وإن اقمت ستحيا الكبرياء به
وأنشد صباح مسا .... هذا رداء أبي
غنيت فيه به
يحيا لنا الوطن
هذا رداء أبي
هذا هو الوطن" [31]

[30] لقاء الليل، مصدر سابق: 203

[31] المصدر السابق: 254

فالوطن أصبح رداءً يلبسه الأب، ويورثه للأحفاد، وقد تسلّمه من الأجداد، فهو يشتمل على كل معاني الإعتزاز والإفتخار، وكل إشارات التميز والتقدير، فهو نفيس يورّث كما هي الكنوز، وسيغدو هذا الرداء مظلة تنطوي تحتها كل معاني الانتماء للفخر والاعتزاز. [32]

ثم تتوسع دائرة مفهوم الوطن لتصبح كل الوطن العربي، وتمتد ليكون معنى الوطن (كل الوطن العربي)، فيتحول الاعتزاز بالوطن، لمفهوم القومية العربية، فيقول:

"من عيون المجد من ماضي السنين أمة العرب بلادي كلها" [33]

فيصبح الوطن واضحًا جليًا، يتسع ليحمل كل الانتماء للقومية العربية، ويتداخل مفهوم الوطن ليكون أكثر من مجرد حدود جغرافية، فتتسع الحدود، وتتبخر التقاسيم، فيقول :

"فيعربيًا ما أزال ما تركت موطني إلا أقمتُ في أنحائه فترة " [34]

فها هي القومية العربية، واضحة جلية، وهي معلنة للجميع، وموقفه واضح وجلي.

ب)الوطن (فلسطين– القدس– الأقصى)

ويجعل من الوطن الأم الحانية التي تتسع بحنانها لتحضن كل صاحب وجع، ففي قصيدة (القدس مباركة فينا) يسرد قصة الالتحام والاندغام القومي الديني، فيقول:

---

[32] انظر: مصدر سابق: (215-216-217، 172)

[33] المصدر سابق: 218.

[34] المصدر السابق: 171.

"يستيقظ هم القلب على وطن
وطن يستعذب أيام التاريخ إذا مرت
وطن يشتاق لأحلام الأطفال إذا ناموا
وطن محفور في ألواح ضمائرنا
وطن للعهد وفيٌ
فالقدس مباركة فينا
ولها أجمل الأسماء" [35]

فالقرب المكاني والقرب المعنوي، يجعل من (فلسطين) من الأماكن التي ورد ذكرها في ديوانه: ثماني مرات، وكذلك (الأقصى) بالعدد نفسه، لكن (القدس) جاء بذكرها سبع عشرة مرة.

ويدل ورود ذكر (القدس) المكثّف على حرص الشاعر لذكرها، والتبرّك بصدى صوت مسماها، فمرة يخبرنا عن مكانتها ورتبتها الدينية، فيقول:

"فالقدس مباركة فينا ولها الأجمل في الأسماء" [36]

ويجعل منها عنوانا لهذه القصيدة السابعة من الديوان ، وقصة العنوان تكشف أبعادًا عميقة، وتكشف عن "تراسل للصوت والصورة معا" وهو ما يشير إليه صلاح فضل في تحديد خصوصيته العنوان فهي "أول عتبات النص" و " مفتاح الدلالة" وهو يشير إلى أن العنوان "غطاء يفرش امتداد الأفق ويرسم الفضاء المكاني الهش [37].

ثم مرة أخرى يسرد قصتها الموجعة مع الاحتلال، فيذكر ذلك فيقول:

"القدس علاها المحتل، فيها الأعداءوفيها الفجار الأشرار" [38]

---

[35] المصدر السابق: 37

[36] المصدر السابق: 38.

[37] قراءة الصورة وصور القراءة: صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1997، ص: 97.

[38] المصدر سابق: 39

ويكرر ذكر (القدس) و الأقصى) وتوابعها من أبواب وساحات وأسوار حتى مفاتيحها والأبواب والشبابيك والقباب والكنائس، فيقول:

"**تحزنني قبلتنا الأولى**"[39]

"**والسجن لهم صف أو دار** "[40]

" **ومتى لا يدخل أبواب الأقصى**

إلا من كان من الثوار" [41]

"**ما زال يخبئ في يده مفتاح الدار** " [42]

وحتى أنه ينسب للقدس الحرب، فيقول:

"**وقد هدأت رياحك من عناء وحرب القدس ما هدأت رحاها**"[43]

" **فحربك في فلسطين انتصار ونار القدس يحرقنا لظاها**" [44]

ويقدس ثراها وتاريخها ودروبها، فيلون الحديث عنها في قصيدة "عبد الله"[45] ويسرد قصة الشهيد عبد الله التل الذي قدّم روحه فداء للوطن.

وفي هذه القصيدة تعبر حقيقة عن تحقيق العروبة للأرض المسلوبة، والقومية، واستنهاض المشاعر الدينية والقومية في الجندي الأردني، فيسرد القصيدة بأسلوب قصصي ممتع، مشوق في احتفال تكريمي لهذا الشهيد البطل، فيقول:

"**فهذي القدس تشهد فيك نصرًا وأنت لواؤها حامي حماها**

كتبت لها صحائف مشرقات سطورًا من رمال ومن دماها

نذرت لها الحياة وخضت فيها جهاد لـه شقين على ثراها

---

[39] المصدر السابق: 38

[40] المصدر السابق: 39

[41] المصدر السابق: 38

[42] المصدر السابق: 39

[43] المصدر السابق: 39

[44] المصدر السابق: 210

[45] المصدر السابق: 210

أعبـد الله ما أخلفت وعـدًا ودربا لقدس كنت لها رجاها"[46]

ج) الوطن – العروبة:

وللحديث عن الوطن عموما، تتسع مساحة حدود الوطن، فيكون كل الوطن العربي وطنًا واحدًا، والانتماء للعروبة هو المحدد فيقول:

"**من عيون المجد من ماضي السنين أمـة العرب بـلادي كلـها** "[47]

"**عربـي أمتـي تزهو بـه أنت جيش العرب فهذا الوجود** " [48]

وهنـا تتسـع دائـرة الـوطن ليصـبح كـل الـوطن العربـي وطنـه، وقـد يـأتي ذكـر الـوطن، دون تحديـد لأي مكـان أو حـدود، لمفهـوم الـوطن العـام، ولكـل فـرد هـو مفهومه الخاص المحدد، فيقول :

"**فللأوطان أرواح تسامى على حب الحياة بنا مناها**" [49]

وقد يوسّع من دلالة مفهوم الوطن ليكون متسعًا ، يدخل في حدوده كل الأوطان، ثم يجعله متميزًا لا يشابهه وطن، فيقول:

"**أنت عهد لا أرى لي قبله**

في ربى الأوطان في كل الحدود" [50]

فدلالة الأوطان (عامة) ليست محددة، فذكر مفهوم الوطن هنا (بمعنى العروبة) الوطن العربي ، ثم تسطيع أن تمتد به ليقابل الحيز الجغرافي المتسع في أرجاء الارض قاطبة.

وهو يشير إلى الحدود الفاصلة التي تتمايز الأوطان من خلالها، وتستشعر الأمان والاطمئنان داخل حيز حدودها.

---

[46] انظر: لقاء الليل، مصدر سابق: 207-211.

[47] المصدر سابق: 218.

[48] المصدر السابق : 216

[49] المصدر سابق: 113

[50] المصدر السابق: 216.

ثانيا: عموم لفظة (مكان) وخصوصيتها:

أ-مكان للحب والرومانسية:

هذه الأمكنة عامة، لا تفصح عن تحديد هويتها، ولا عن حدودها الجغرافية، يجعل من تحديدها خصوصية خفية ودلالة وظيفية عميقة ففي قوله:

"التقيني في مكان قد عرفنا الحب فيه"[51]

فهو يربط ما حول المكان ليكون هو محور الكلام لينقلنا إلى الأجواء التي حصلت في المكان دون أن نلتفت إلى حدود المكان وجغرافيته، فهو يحدد المكان بمناجاة الحدث (عرفنا الحب فيه) فمن المؤكد أن العاشق لا ينسى الذكرى الأولى واللقاء الأول، ثم يعود ليوضح في قوله:

"**حيث لا يحلو مكان مثله قد نلقى الحب فيه** [52]

فقدسية هذا المكان خاصة ولذلك يؤكد على ذلك المعنى، بأسلوب التكرار، فيكرر المقطع ثلاث مرات في القصيدة، فيقول:

"**في مكان قد عرفنا الحب فيه**

كي نرى الحب حياة

كي نرى الحب حياة

في مكان قد عرفنا الحب فيه"[53]

ويعنّون القصيدة بذكر (مكان) نكرة، ومن ثم يعرّف بها تعريفا محددا، فيه خصوصية شاملة وواضحة لتلك العلاقة.

---

[51] المصدر سابق: 34

[52] المصدر السابق: 216

[53] المصدر السابق: 34

ويتابع في سياق الرومانسية، تحديد مكان اللقاء، فهاجس اللقاء، هو الحديث الذي جعل تحديد المكان مهمًا، فهو يشير إلى مكان اللقاء الذي سيصبح كعبته وملاذه الآمن، كلما اشتاق، فيقول:

"**وصار هذا مكانًا لا أفارقه إن ضاق صدري لشيء فيه تلقاني**

فما عرفت سوى هذا المكان لنا وما سواه رأت عيني وأغراني" [54]

أين هو المكان؟ وما هي اتجاهات حدوده؟

فهو يكشف عنه في أبيات سبقت تحديدها، فيشير إلى حدوده قائلا:

فأنت تلك التي عمت مباهجها على دروب المنى يوما ببستان" [55]

فكان اللقاء البهيج، الصدفة الرائعة في بستان قريب منه، ثم حدث اللقاء والإصطفاء الروحي، فيحدد جغرافية وهوية اللقاء، فيقول :

"**في ظل زيتونة ما زلت جالسة وما تزالين في قلبي ووجداني**" [56]

يتعلق الشاعر بمفهوم دلالة (مكان) لاستخدامها في حالتي نفي : حالة العشق والشوق، حالة خاصة مغلقة، وكأنه مكان سري، يتعلق به وبالمحبوبة فقط، لذلك، يقول:

"**التقيني في مكان قد عرفنا الحب فيه**" [57]

وهي قصيدة رومانسية، معنونة بـ "التقيني في مكان"، ثم يوضح دلالة المكان، ويكشف سرّه، الذاتي النفسي

"**عاشقا كل الأماكن**" [58]

---

[54] انظر: المصدر السابق: 120-121.

[55] المصدر السابق: 120

[56] الديوان، مصدر سابق: 120

[57] المصدر السابق: 33

[58] المصدر السابق: 33

فالمكان الذي يلتقي فيه المحبوبة، سيصبح المكان الأجمل، والأفضل، وهو الذي سيخلّد فيه ذكرى جميلة، فيصبح له معرّفًا، ساطعًا، لامعًا، لكنه جغرافيا سيبقيه سرًا، لا يكشفه للجميع.

ويوضح علاقته بالمكان، فيقرر أنه:

"حيث لا يحلو مكان مثله قد نلتقي للحب فيه" [59]

فلا يكون الوعد والأماني إلا فيه، في ذلك المكان، فيعرّفه بفلسفته الخاصة، فيقول :

"امنحني الآن وعدًا

في مكان قد عرفنا الحب فيه

كي نرى الحب حياة

في مكان قد عرفنا الحب فيه"[60]

وفي قصيدة أخرى، يكشف عن ضبابية المكان، ويصبح ظاهرا للجميع يقول:

"في ظل زيتونة ما زلت جالسة وما تزالين في قلبي ووجداني

وصار هذا مكانا لا أفارقه إن ضاق صدري بشيء فيه تلقاني

فما عرفت سوى هذا المكان لنا وما سواه رأت عيني وأغراني" [61]

ويتم صورة الكشف المكاني، في قصيدة، فيقول:

"وما إن أقبلت ثم التقينا وكان مكاننا ظلا ظليلا

جميلا كان لقيانا بأرض ولم تعرف لنا فيها خليلا " [62]

---

[59] المصدر سابق: 33.

[60] المصدر السابق: 34

[61] المصدر السابق: 120

[62] المصدر سابق: 192

فالبستان المكان العام الواضح، ثم يتقلص المكان ويتحدد إلى أن يصبح بقعة يسلط عليها الضوء؛ ليكشف لنا عنها بوضوح ، في ظل شجرة الزيتون التي تعاهدا اللقاء خفية تحتها، فهو يقول:

"**ولتذكري بعض أيام لنا سلفت كنّا بها نلتقي لكن بكتمان** " [63]

فهو يحدد ظرفية المكان (بها)، ويلصق بها الحالة الخاصة "اللقاء الخفي" فنستحضر حالة اللقاء الخفية، عندما يتحدث عن الأيام الخالية التي تحمل ذكر اللقاء الجميل.

فمرة يظهر المكان لتلك الذكريات واضحًا لامعًا محددًا (البستان) ، لكنه متسعًا، ثم يبدأ بالتصنيف من أجل التحديد أكثر،(في ظل شجرة زيتون) ومرة يختفي، وتكون صورته ضبابية في حنايا صورة اللقاء الخفي في طي الكتمان.

وتكون الدلالة الرومانسية ليذكر هذا المكان، بعد أن يسرد ذكريات الحب الأول، فيذكر المكان مع تداعيات اللقاء، فيقول:

" **وما إن أقبلت ثم التقينا وكان مكاننا ظلا ظليلاً**" [64]

فجمع الذكريات بجامع المكان فيصبح المكان (مكاننا) خصوصية كاملة، ويتوحد المكان مع ذكرياتهما، ويبدأ بسرد الذكريات، وكأنه حلم جميل.

ب) مكان فيه خصوصية (الشهيد) والفداء:

ورد ذكر (مكان) في سياق الحديث عن (الشهيد) واستخدم (مكانا) ليوضح الرتبة المكانية، والمقام الرفيع في الحديث عن مكان الشهيد، فيقول:

"أبت نفس الشهيد لها مكانا سوى هام العلا ذا مبتغاها " [65]

---

[63] المصدر السابق: 122.

[64] المصدر السابق: 191.

[65] المصدر السابق: 113.

فاستخدم (مكانا) ليوضح رفض الشهيد لأي (مكان) بعمومية اللفظ، واعتبار الأمكنة كلها نكرة، إلا استثناء لمكان يتلاءم مع مستوى وقيمة روح الشهيد، فهي تطلب "هام العلا" لها مكانًا، يوازي مكانتها العالية، ويتابع وصف هذه المكانة ويصف هذا المقام مؤكدًا، في قوله:

"**وأي مكانة يرقى إليها إذا ما نال من أحلى عطاها**" [66]

ويظهر الوطن واضحًا جليًا وطن الفداء والبطولة، مشيرًا إليه أنه منذ الخلق، (أزليًا) فيقول:

موطن الأحرار من عهد الأولى نحن للأمة خير الأوفياء [67]

فهو يثبت صفة للوطن، موطن للأحرار منذ القدم والأزلية، وهي من الصفات التي يعدد ذكرها سابقا ولاحقا.

وهو يوسع من دلالة مفهوم الوطن ليكون متسعا، يدخل في حدوده كل الأوطان، ثم يجعله متميزا، لا يشابهه وطن، فيقول :

"**أنت عهد لا أرى لي قبله في ربى الأوطان في كل الحدود**" [68]

فذكر مفهوم الوطن العالم، ليقابل الحيز الجغرافي المتسع، ويشير إلى الحدود الفاصلة التي تتمايز الأوطان من خلالها، وتستشعر الأمان والاطمئنان داخل حيز حدودها.

وربما تختلط المسميات، وتصبح متداخلة، حيث تتبادل المعطيات بين المسميات، ففي قوله:

"**أنت يا أردن تعطينا الحياة بمعانيها لكي يحيا الوطن**" [69]

فالأردن هو ← الوطن

---

[66] المصدر سابق: 114.

[67] المصدر السابق: 215.

[68] المصدر السابق: 216.

[69] المصدر السابق 218.

والوطن هو ← الأردن

والأردن هو ← الروح

الروح هي ← الوطن

فهذا التبادل لدلالات الأسماء، يتعمق بالمتلقي لتتوحد المسميات ودلالاتها عنده.

وفي قوله : "**سيبقى في ذرى العلياء شيء اسمه الوطن**" [70]

السطوع والشموخ واضح لمسمى (الوطن) عاليا في الذرى، وهذا التحديد لا ضبابية فيه، بل يضفى عليه الثبوت والشموخ معا.

وهذا الشموخ سيعرّفه، ويوضّح دلالة التعريف به، فيتابع قوله:

يحيا لنا الوطن هذا هو الوطن [71]

فالهتاف للوطن، تعريف مباشر له ، وواضح من خلال السياق ، وجليّ للمتلقي. فالحب يسبب اشعاعا وسطوعا، يؤدي إلى ثبات العلاقة واستقرارها، وربما يكون اللقاء هو شعلة السطوع وانتشارها[72]

النتائج:

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- يعدّ المكان البؤرة الأساسية التي يتمحور حولها مضمون القصائد في ديوان "لقاء الليل".
- تنوّع المكان بشكل واضح في قصائده، فتشكلت التضاريس الجغرافية والهواجس المعنوية، تنوعات مكانية مختلفة، ما بين أوطان متعددة، ومدن متفاوتة، وجبال وأنهار ووديان، ومحطات في ذاكرته ومخيلته كثيرة.

---

[70] المصدر سابق: 253

[71] المصدر السابق: 254

[72] انظر: المصدر السابق: 26، 73، 120، 130، 97، 261

- كان الوطن، مكانًا متشعبًا، ومحورًا، أساسيًا في تنوعات صورته، فمرة واضحة جلية، له حدوده ، ومرة صورته خافتة ضبابية غير محددة؛ ليبين صدى انعكاسات دلالته.
- وتوصي الدراسة بتتبع الجزيئيات المكانية المتعددة والمتناثرة في بنية القصائد في الديوان ودراسة عميقة لها، تربط ما بين السياق والدلالة الوظيفية لاستخدامها.

قائمة المراجع والمصادر:

1.ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986، ط1.

2.وليد منير، جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997، د.م، د.ط.

3.غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، 1984، ط2.

4.شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للنشر، بيروت،1994، ط1.

5.حبيب مؤنس، فلسفة المكان في الشعر العربي، منشورات دار الكتاب العربي، دمشق، 2001، د.ط.

6.صلاح فضيل، قراءة الصورة وصور القراءة، دار الشروق ، القاهرة، 1997، ط1.

7.محمود فضيل التل، لقاء الليل، الان ناشرون، عمان ،2021، ط1.

مقالات:

عماد الضمور، شعرية العنوان: مجلة رصين ، 16 اكتوبر، 2020.